مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على جزيل عطائه والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والرسل . وبعد فهذا هو الجزء الأول من المجلد الثالث من مجلدات قصة الحضارة ، وقد سماه المؤلف **قيصر والمسيح** لأن هذا المجلد يبحث فى حضارة رومة وبداية الحضارة المسيحية حتى عام ٣٢٥ بعد الميلاد . وسيكون هذا الجزء الذى بين يدى القارئ واحداً من أربعة أجزاء يكمل بها المجلد الثالث من هذه الموسوعة ، ويشمل أولها قصة الحضارة الرومانية من أقدم العهود إلى مقتل يوليوس قيصر والحرب الأهلية التى أعقبت موته ، ويقص الثانى قصة الحضارة الرومانية من ٣٠ ق م إلى منتصف القرن الثانى بعده ، ويشمل الثالث عهد الإمبراطورية إلى نهاية القرن الثانى ، وينتهى هذا المجلد بالجزء الرابع ، ويروى قصة الصراع بين المسيحية والوثنية من بدايتها إلى انتصار المسيحية فى عهد قسطنطين ، وقد كانت خطة المؤلف الأولى تهدف إلى أن تتم السلسلة فى خمسة مجلدات كبرى لكنه حين أصدر هذا المجلد الثالث جعلها ستة ثم عاد فى أواخر العام الماضى حين أصدر المجلد الخامس فى عصر النهضة فزادها إلى سبعة لأنه خص النهضة بمجلد والإصلاح الدينى بمجلد آخر . والحق أن عصر النهضة خليق بأن يفرد له مجلد خاص لأنه بداية العصر الحديث ، وفيه استيقظ العقل البشرى من سباته الطويل ونبتت بذور الحضارة التى ازدهرت فى هذه الأيام .

ولسنا فى حاجة إلى التنويه بقيمة هذا المجلد فهو كالمجلدين السابقين تراث الشرق القديم وتراث اليونان فى غزارة المادة ودقة البحث ، وحسب القارئ أن يطلع على ثبت المراجع مجملة ومفصلة ليعرف الجهد الذى بذله المؤلف فى جمع مادته وتحقيقها .

ولا يسعنا هنا إلا أن ننوه مرة أخرى بفضل الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية التى اختارت الكتاب وعهدت إلينا ترجمته ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر التى تولت طبعه ونشره ، والقراء فى مصر وسائر البلاد العربية الذين أقبلوا على اقتنائه إقبالا كان له أكبر الأثر فى تشجيعنا على مواصلة العمل فى ترجمة هذه الموسوعة التى نسأل الله أن يوفقنا لإتمامها ؟

مارس سنة ١٩٥٥

محمد بدران

تمهيد

هذا المجلد — وإن يكن وحدة مستقلة بذاتها — هو القسم الثالث من كتب تاريخ الحضارة التى كان المجلد الأول فيها تراث الشرق ، والمجلد الثانى حياة اليونان . وإذا سمحت لنا ظروف الحرب القائمة(*)، ووهبنا الله نعمة الصحة فسيكون المجلد الرابع وهو عصر الإيمان معداً للنشر فى عام ١٩٥٠ . والخطة التى نسير عليها فى هذا العمل هى الخطة التاريخية التركيبية ، التى تقتضى بدراسة النواحى الهامة فى حياة الشعب وعمله وثقافته وتفاعلها وتأثير كل منها فى الأخرى .

أما الطريقة التحليلية فى كتابة التاريخ — وهى كذلك طريقة لا غنى عنها من الناحية العلمية ولا تقل الحاجة إليها عن الحاجة إلى الطريقة التركيبية — فهى التى تدرس ناحية واحدة من نواحى النشاط الإنسانى — كالناحية السياسية أو الاقتصادية أو الخلقية أو الدينية أو العلمية أو الفلسفية أو الأدبية أو الفنية — فى حضارة بعينها أو جميع حضارات العالم . وعيب هذه الطريقة التحليلية أنها تفصل جزءاً من كل فصلا يشوهه . أما عيب الطريقة التركيبية فهو أنها ، إذ تتطلب من عقل واحد أن يعتمد على معرفته الشخصية فى حديثه عن كل ناحية من نواحى إحدى المدنيات المعقدة التى تمتد آلاف السنين ، إنما تطلب المستحيل . وليس فى وسع من يتصدى إلى هذا العمل أن يتجنب الأخطاء فى الدقائق والتفاصيل ، ولكن العقل الهائم بحب الفلسفة — وهى إدراك الأشياء عن طريق علاقاتها بعضها ببعض — هى الطريقة الوحيدة التى يستطيع بها عقل لا يقدر بغير هذه الطريقة أن يقنع بسير أغوار الماضى . إن فى وسعنا أن نطلب

(*) ظهرت الطبعة الأولى من هذا المجلد فى عام ١٩٤٤ وثار الحرب العالمية الثانية مشتعلة . (المترجم)

للفلسفة عن طريق العلم، وذلك بدراسة ما بين الأشياء من علاقات فى المكان، أو أن نطلبها عن طريق التاريخ بدراسة ما بين الحوادث من صلات فى الزمان، وفى مقدورنا أن نعرف عن طبيعة الإنسان بدراسة سلوكه وأعماله فى خلال ستين قرناً من الزمان أكثر ممـــا نعرفه عنها بقراءة مؤلفات أفلاطون وأرسطو ، وسبنوزا وكانت . وما أصدق قول نتشة فى المغنى : « ما أضيع الفلسفة كلها أمام التاريخ فى هذه الأيام(*) » .

وإن دراسة الماضى لتعد بحق عديمة النفع إذا لم يجعل هذا الماضى مسرحية حية ، أو إذا لم تضئ لنا دراسته ظلمات حياتنا الحاضرة . أليس قيام مدينة رومة وارتقاؤها من بلدة صغيرة فى مفترق الطرق حتى سادت العالم المعروف وقتئذ، وما أسبغته من أمن وسلام على رقعة واسعة من الأرض تمتد من جزيرة القرم إلى مضيق جبل طارق ، ومن نهر الفرات إلى سور هدريان ، وما نشرته من أصول الحضارة القديمة فى عالم البحر الأبيض المتوسط وفى غرب أوربا ، وما قامت به من كفاح للاحتفاظ بملكها المنظم من أن تطغى عليه بحار الهمجية التى تكتنفه من كل جوانبه ، ثم تصدعها الطويل البطىء ، وانهيارها آخر الأمر ، وتردیها المشئوم فى ظلمات الجهالة والفوضى ، أليس هذا كله أعظم مسرحية مثلها الإنسان ، اللهم إلا إذا ظننا أن أعظم منها وأكثر روعة تلك المسرحية الأخرى التى بدأت حين وقف قيصر والمسيح وجهاً لوجه فى ساحة پيليت pilate والتى دامت حتى أضحت حفنة من المســيحيين المضطهدين المطاردين بما أوتيت من صبر وجلد وما قاست من اضطهاد وما حل بها من رعب وهول ، نقول حتى أضحت هذه الحفنة من المسيحيين فى بداية الأمر حليفة لأعظم إمبراطورية فى التاريخ ، ثم سيدتها ، ثم وريثتها بعد تصرم أجلها

(*) **Human, All Too Human** الترجمة الإنجليزية طبعة نيويورك سنة ١٩١١ الجلد الثانى ص ١٧ .

ولكن لهذه المسرحية الكبيرة بالنسبة لنا معنى أعظم مما يبدو بالنظر إلى فخامتها وطول زمانها واتساع المسرح التى تمثل عليه : ذلك أنها تشبه شبهاً عجيباً عظيم الدلالة حضارة هذه الأيام ، والمشاكل القائمة فيها ، وتلقى عليها ضوءاً ينذرنا بسوء المصير . وهذا هو ما نفيده من دراسة حضارة من الحضارات دراسة تشمل جميع نواحيها وأدوار حياتها — فنى وسعنا بهذه الدراسة الشاملة أن نوازن كل مرحلة من مراحلها وكل ناحية من نواحيها بما يقابلها من مراحل وعناصر فى مجرى ثقافتنا نحن ، فنتخذ من هذه الموازنة ، وبما أعقب المراحل الماضية الشبيهة بمرحلتنا الحاضرة ، عظة لنا تبعث فينا الحذر أو الإقدام ؛ وما أشبه الكفاح الذى قام بين الحضارة الرومانية والهمجية فى داخل الإمبراطورية وخارجها بالكفاح القائم فى العالم فى هذه الأيام . وفى مشاكل رومة البيولوجية وانحلالها الخلقى معالم تهدينا نحن سواء السبيل ؛ وإن الصراع الطائفى الذى قام بين ولدى جراكس The Cracchi وبين مجلس الشيوخ ثم بين ماريوس وسلا Marius & Sulla ، وبين قيصر وبمبى ؛ وبين أنطونيوس وأكتافيان لهو عين الصراع القائم بيننا فى هذه الأيام ، والذى لا تكاد تخبو ناره حتى تشتعل من جديد ، فتلتهم فترات السلم التهاماً ؛ وإن فيما كانت تبذله شعوب البحر الأبيض المتوسط من جهود المستيئس لتحتفظ لنفسها بقبس من ضياء الحرية تنتزعه من تلك الدولة الطاغية لنذيراً بما ينتظرنا نحن من واجب ثقيل .

وإن قصة رومة لهى فى واقع الأمر قصتنا نحن .

المدخل

أصل الرومان